



مفهوم التشيؤ وأشكاله لدى هريوت ماركوز

بوعلام بن شريف

جامعة الجزائر 2

### Résumé :

Dans cet article on essaye de développer un thème très important qui concerne le champ philosophique contemporain, notamment la pensée critique d'Herbert Marcuse appliquée sur la société de l'abondance qui est entrain de cheminer vers le monde des ténèbres et de la violence. Ce philosophe critique est considéré comme l'architecte de l'école de

Francfort. Dans l'ensemble de ses écrits comme « l'homme unidimensionnel » et « Eros et civilisation », il a fait la description du spectre qui a fait chanceler la civilisation occidentale, le spectre de l'unidimensionnalité qui a pris son ampleur dans le monde capitaliste et le monde du socialisme avancé. Outre, il nous a démontré que cette caractéristique est engendrée par le développement technologique de la société industrielle orientée et gouvernée par l'élite capitaliste et les acteurs économiques qui manipulent la production ( la marchandise) pour leurs fins utilitaires, mais pas pour la liberté humaine.

**Mots clés** : la réification, la sur – répression, le gouvernement institutionnel, le spectre de l'unidimensionnalité.

ينصب موضوع دراستنا هذه بالتحديد على مفهوم التشيؤ لدى  
(هربرت ماركوز) (1898-1979) (Herbert Marcuse)، إذ نعد  
من خلاله إلى تحديد أشكاله التي تعكس آليات السيطرة بالنسبة للنظام  
الرأسمالي المعاصر. ولكن، كون أن طبيعة موضوعنا يتلخص في إبراز  
طبيعة العلاقات الإجتماعية القائمة بين الناس في ظل المجتمعات  
المعاصرة المتقدمة صناعيا، استوجب علينا، أولا قبل كل شيء، استنطاق  
معاني كتابات أهم الفلاسفة الذين تطرقوا قبل ماركوز لتحليل ونقد نمط  
الحياة الذي تقوم عليه المجتمعات البرجوازية، والتي مارست تأثيرا عميقا  
في نشوء النظرية النقدية الإجتماعية. ومن بين هؤلاء سنركز على نقد  
(كارل ماركس) - (1818-1883) (Karl Marx) لظاهرة  
الإستغلال وصنمية البضاعة التي حولت الإنسان إلى كائن مغترب عن  
نوعه الإنساني من جهة، ثم ننتقل إلى فكرة تشيؤ القيم الإنسانية من  
منظور (جورج لوكاتش) - (1885-1971) (Goerg Lukács)  
(من جهة أخرى).

لقد وجه ماركس نقدا لاذعا ضد مفهوم الاغتراب لدى (هيجل  
فريدريش) (1770-1831) (Hegel) الذي صبغ هذا المفهوم بصبغة

مثالية مجردة عندما اعتبر أن مصدر الإغتراب عالم الأفكار المجردة التي تتموضع في الواقع في شكل مؤسسات اجتماعية و سياسية و اقتصادية بعد اغترابها عن عالم التصورات المثالية . إذ قام ماركس بقلب هذه المعادلة الهيجلية حين "فسر مفهوم الإغتراب تفسيراً دقيقاً... مبيناً أنه من المستحيل تحديد معناه و توضيحه بكيفية دينية ، ميتافيزيقية ، أو عقلية روحانية ، لأن الواقع يشهد على العكس من ذلك، فالنظريات الميتافيزيقية ومختلف الديانات ... هي التي تساهم من أجل جعل الإنسان كائناً مغترباً ، مستلباً ، إنها تعمل على فصله عن ذاته وإبعاده عن وعيه الحقيقي، وعن مشاكله الحقيقية . وهذا يعني أن مفهوم الاغتراب ليس بمفهوم نظري أو مثالي .... وإنما يشغل نطاقاً آخر أوسع من العالم المثالي، إنه تطبيقي أكثر مما هو مثالي" (1)

ولكن، إن السؤال الذي يتبادر إلى ذهننا في هذا السياق هو كتالي، يا ترى فيم تتلخص أهم العوامل والدوافع الواقعية- الإقتصادية التي أدت بماركس ليحدد موقفه هذا؟

من الثابت أننا سنقوم بالتركيز على ظاهرة اغتراب العامل داخل المصنع ، نظراً لكونها تعكس الوضع السيئ الذي يعيشه العامل داخل المصنع الذي يشتغل فيه ، كما تعبر أيضاً عن تحول ناتج النشاط إلى

شيء غير متوقف على الانسان ومسيطر عليه، وكذلك عن تشوه طابع النشاط البشري، بحيث يفقد مضمونه الخلاق، ويتجرد الإنسان من شخصيته، إذ تتكسب العلاقات الإجتماعية بين الناس صورة علاقات بين الأشياء ، هذا من جهة. أما من ناحية أخرى، فإن اغتراب الإنسان عن قيمه الإنسانية الأصلية في ظل المجتمع الرأسمالي يظهر عندما يصبح النشاط الإجتماعي المشترك ونتائجه، وروابط الناس الإجتماعية بالنسبة لكل فرد ولمختلف الفئات الإجتماعية ، شيئاً خارجياً غريباً عنهم. ويغدو العالم الإجتماعي الذي صنعه الإنسان عالماً معادياً له ومسيطر عليه، بحيث يضطر للتلاؤم معه. وتقف منتجات العمل البشري في مواجهة العامل. وذلك في صورة رأس المال، في صورة قوة اجتماعية تسيطر عليه وتكرهه على العمل<sup>(2)</sup>. يقول ماركس في هذا السياق موضحاً ذلك ما يلي:

"إن الطبقة العاملة التي تعيش أوضاعاً كادحة إلى حد الموت جوعاً على الرغم من كونها تشتغل وتنتج وتحقق العمل، إلا وأنها لا تمتلكه وليس من نصيبها وإنما هو نصيب سيدها...أما هو فإنه كلما زاد نشاط عمله زاد افتقاراً إلى الموضوعات... ولا يعني اغتراب العامل في ناتجه أن عمله قد أصبح مستقلاً موضوعاً - وجوداً خارجياً - فحسب، وإنما يعني أنه يوجد

خارجه كشيء غريب عنه، وأنه تصبح قوة تواجهه، إنه يعني أن الحياة التي منحها للموضوع تواجهه كأمر معاد غريب" (3).

يتبين لنا من خلال هذا الكلام أن ماركس يريد أن يوضح قضية مهمة جدا، تتمثل في أن قيمة العمل أو تلك الوظيفة التي كان الإنسان يعبر بها عن سعادته وكرامته ومختلف قيمه الأخرى، أصبحت اليوم في إطار النظام الإقتصادي الرأسمالي أداة قمع وقهر وتسلط. بصيغة أخرى، إن قيمة العمل التي تعكس وظيفة الإنسان في حياته اليومية والذي يسعى من خلالها للتحرر من أغلال العبودية، أصبحت في صورتها الراهنة أداة للسيطرة عليه ووسيلة لبناء عالم الإستعباد والظلم من جديد. والدليل على ذلك، أنه في ظل المجتمعات المعاصرة الرأسمالية " لم يعد عمل الإنسان يحقق أهدافه الخاصة ، بل يحقق العمل أهداف شخص آخر، ويساهم أيضا بدون وعي، في صنع السلع... [ التي ستصبح فيما بعد طبيعة العلاقة الإجتماعية، والصلة الجوهرية التي تربط الإنسان بالإنسان ] حيث تتحول إلى [ صلة غير جوهرية أكثر مما هو عليه وجوده الحقيقي ... ] و هذا ما يتجلى لنا بكل وضوح عندما تخضع هذه السلع لعملية التبادل، إذ تمارس سلطتها على الإنسان... ويقدر ما تغدو السلعة هي الفاعل أو الذات بقدر ما يصبح الإنسان تابعا لها، ومستلبا لذاته." (4) وذلك لأن

الإنسان الذي غير من طبيعة نمط حياته حيث انتقل من المرحلة الإقطاعية إلى المرحلة الرأسمالية، لم يعد هو المنتج، أي العامل الذي ينتج بمحض إرادته وحرية تلك المنتوجات التي يصبغ فيها إنسانيته، بل العكس، إن " أحوال وظروف النظام الرأسمالي المنسجمة تجعل من العمل مغتربا : إنها تسلب من الإنسان إنسانيته ... باعتبار أن ماهية الرأسمالية تتمثل في السعي لتحقيق المنفعة الخاصة، وذلك من خلال الإنتاجية التي تحدد لها هذه المنافع ". (5)

يوصل ماركس تحليله ونقده لنمط الحياة السائد في ظل هذه المجتمعات حتى نزع الستار عن ظاهرة جديدة يسميها باغتراب نشاط أوعمل العامل أثناء تأديته لوظيفته داخل المصنع، أي في الوقت الذي يؤدي فيه العامل عملية الإنتاج داخل المصنع في ظل المجتمعات الرأسمالية نجده مضطهد ومقهور... إذ تجعل منه نشاطا غريبا لا ينتمي إليه، إنه النشاط كمعاناة، أو العمل في نطاق العبودية والانتقباد. (6) أكثر من ذلك، لقد تعمق أيضا في دراسته هذه حتى كشف بأن اغتراب العامل عن ناتج عمله كما عن اغتراب نشاطه يدل على انتشار ظاهرة سلبية جديدة تتمثل في فقدان العامل حريته أثناء تأديته لعملية الإنتاج، أي اغتراب النوع الإنساني، هذا الأخير الذي يتميز عن نوع الحيوان غير

الناطق في إدراكه لعملية الإنتاج التي يمارسها. وبالفعل، ذلك هو المعنى الذي نستشفه لدى ماركس من خلال كلامه الآتي: " إغتراب نشاط الإنسان الحر الواعي" (7) الذي يقصد به النشاط الذي يحرر الإنسان من عالم البؤس والعبودية، حيث لا يمكن بلوغ هذا الهدف إلا إذا كان مصدر هذا النشاط هو الوعي الذي ينبعث من جوهر الإنسان الذي هو العقل.

لم يتوقف ماركس إلى هذا الحد ، بل إن ظاهرة اغتراب العامل عن ناتج عمله ونشاطه ووعيه فتح له المجال لبحث ويتساءل عن الخيز الذي ينتمي إليه منتج العمل أو الكائن الذي يستعبد الناس ومن ثم يستولي ويسيطر على عرق جبينهم، وذلك هو الأمر الذي يعلنه في كلام ما نصه: " إذا كان ناتج العمل غريب عني، إذا كان يواجهني كقوة غريبة، فلن إذا ينتمي؟ ... لكائن آخر غيري. من هو هذا الكائن ؟ الآلهة؟ ... إن الكائن الغريب الذي ينتمي إليه العمل وناتج العمل. والذي يبذل العمل في خدمته ويوفر ناتج العمل لمنفعته لا يمكن أن يكون إلا الإنسان نفسه... وهو إنسان آخر غير العامل ... فلا الآلهة ولا الطبيعة وإنما الإنسان نفسه هو الذي يمكن أن يكون هذه القوة الغريبة التي تثقل على الإنسان." (8) إنه الرجل الرأسمالي، صاحب المصنع الذي يمتلك وسائل



الإنتاج ويسعى دائما للسيطرة على المنتج الصناعي بغية تحقيق هدفه الوحيد المتمثل في كسب منفعته الخاصة.

هكذا توصل ماركس من خلال دراسته هذه الواردة في مخطوطاته الإقتصادية - الفلسفية التي كتبها عام 1844، أن يكشف العيب الذي يميز المجتمعات الرأسمالية في القرن التاسع عشر، والمتمثل في ظاهرة الإغتراب التي شغلت حيزا كبيرا في هذه المخطوطات. ولكنه لم ينهي دراسته بل تابع تحليله للمجتمعات الرأسمالية، فخص دراسة مستفيضة في كتابه الضخم الموسوم بـ: " رأس المال " لما يسميه بظاهرة فيتيشية البضاعة، التي يقصد بها السيطرة على الموضوعات أو الأشياء المنتجة في السوق الرأسمالية بعد إخضاعها لعملية البيع والشراء، أي "إنتاج السلع من أجل بيعها وليس من أجل استعمالها فيما يخدم الإنسانية، هذا ما يطلق عليه الإقتصاديون الرأسماليون تسمية قيمة المنتج"،<sup>(9)</sup> التي تتحكم في الأفراد الذين ينتمون لهذه المجتمعات، إذ تحول العلاقات الإجتماعية - الإنسانية القائمة بينهم إلى علاقات لا إنسانية مشيئة. وهذه الظاهرة إن دلت على معنى معين، فإن هذا الأخير يشير دون أي شك لمفهوم التشيؤ، أي أن الإنسان لم يعد مغتربا فقط عن نوعه الإنساني بل إنه أكثر من

ذلك، أصبح مشيئاً، يسيطر ويتسيد عليه النظام "باسم جهده المبذول والنشاط الذي يمارسه بيديه." (10)

الحق أن هذه الدراسة التي خصها ماركس في مؤلفه الضخم هذا مارست تأثيراً عميقاً في شخصية فلسفية لامعة في هذا الحقل الفلسفي الماركسي، ألا وهي شخصية جورج لوكانش ، الذي يعتبر من بين الفلاسفة الأوائل الذين ساهموا في إحياء هذه المفاهيم الماركسية. والدليل على ذلك يتجلى لنا بكل وضوح في كتابه " التاريخ والوعي الطبقي " الذي يعد من بين المرجعيات الرئيسية التي ركز عليها رواد الجيل الأول الذين ينسبون إلى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت في تحليلهم ونقدهم للمجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعياً وتكنولوجياً. ومن بين أهم المفاهيم التي تطرق لها لوكانش في كتابه هذا هو مفهوم التشيؤ (Réification).

ينطلق لوكانش في تحليله لمفهوم التشيؤ في المجتمع الرأسمالي من تحليل ماركس لمفهوم البضاعة داخل المجتمع الرأسمالي، ووصفه لعملية التشيؤ التي تترتب عن تعميم مفهوم السلعة أو البضاعة، إذ يشير تحليله هذا إلى أن جوهر الصلة بين الأشخاص في النهاية يأخذ طابعاً شيئياً، باعتبار أن الإقتصاد الرأسمالي، ينتج السلع التي تباع قبل أن تستهلك من قبل العامل، هذا الأخير الذي ينتج البضاعة التي لا يستطيع في الغالب

أن يسد بها حاجته. (11) وذلك بالتحديد، هو الأمر الذي جعل لوكاتش يقول في هذا السياق ما يلي: " إن الصلات بين الناس هي ،.... مرتبطة بالأشياء وتظهر كأشياء إن [ مثل هذه ] الصلات الإنسانية ليست صلات مباشرة من إنسان إلى إنسان ، بل صلات نمطية فيها قوانين تطوير الإنتاج الموضوعية توسط هذه الصلات ، وتصبح فيها هذه القوانين بالضرورة صيغ الظهور المباشرة للصلات الإنسانية . " (12) بمعنى أن هذه القوانين التي تدير وفقها المنظومة الاقتصادية في البلدان المعاصرة المتقدمة صناعيا، أصبحت هي التي تتحكم في طبيعة الإنسان المعاصر ، ولعل أفضل مثال يبرهن على مدى صدق هذا الحكم، يتمثل في عجزنا على إنكار "أن العقلانية الاقتصادية للنظام الرأسمالي أدت إلى "تشيبيئ" الإنسان وجعله جزءا خاضعا لقوانينه الآلية، أي جزءا من عملية الإنتاج لا طرفا منه." (13) وذلك عندما جعلت أنظمة الحكم السائدة من "العقل أداة للسيطرة والهيمنة ليس على العالم الثالث فحسب، وإنما للهيمنة على الإنسان الأوروبي، فبدلا من أن تصبح غاية العقل هي الإكتشاف والابتكار وقراءة الطبيعة، تحقيقا لحياة أفضل، أصبح العقل أداة في يد الشركات الإستهلاكية التي تروج لمنتجاتها وتستخدم وسائل الإتصال في نزع الطابع التحرري للإنسان، لتدور في دائرة جهنمية من المطامع الفردية

التي نمتها هذه الأجهزة ."<sup>(14)</sup> بصيغة أخرى، بدلا من أن يعمل العقل في ظل المجتمعات المعاصرة على تحرير الإنسان من الأغلال التي تقيدته نجده يساهم في تضليله، فتلك الطبقة البروليتارية مثلا التي كانت تدافع عن حقوقها هي أيضا فقدت دورها التاريخي ورسالتها الإنسانية. لقد "تشيأت " في ظل المجتمع الرأسمالي وظروف مصالحه وعلاقاته الإنتاجية، وأصبحت عنصرا من عناصر حركة السلع " كما انحط وعيها حتى صار مجرد وعي ذاتي للسلع، وانحرف هذه الطبقة العاملة من تأدية وظيفتها التاريخية هو دليل قطعي على تحول شخصيتها الفاعلة والمبدعة إلى شخصية خاضعة للنظام القائم، شخصية غريبة عنهم ومدمرة لطبيعتهم وماهيتهم الأصلية.<sup>(15)</sup>

إن هذا التحليل الوارد في الكتاب الموسوم بـ " التاريخ والوعي الطبقي" يظهر لنا مدى تأثير صاحبه **بالمخطوطات الاقتصادية - الفلسفية** ويكتاب رأس المال الذي عالج فيه ماركس مسألة صسمية البضاعة، التي يقصد بها تشيؤ العلاقات بين البشر وتحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة، واتخاذها وجودا مستقلا حيث تكتسب صفات غامضة غير إنسانية.... تبدو كما لو أنها علاقات بين الأشياء." <sup>(16)</sup>

وبتعبير آخر، إن العمل الضخم الذي قام به ماركس ساعد لوكانتش في

الكشف عن تلك الميزة الجوهرية التي تميز المجتمع المعاصر والمتمثلة في سيطرة البنية التجارية التي أدت إلى بروز ما يسمى بحركة السلع المرتبطة مباشرة بحركة النقد (النقود)، بدليل أن هذه الظاهرة المنتشرة والمسيطرة في المجتمع الرأسمالي تشير إلى أن وجود السلع غير مرتبط بالإنسان الذي ينتجها أو الذي يستخدمها ، بل إن وجودها أصبح مرتبطاً بالقيمة النقدية التي تحرك رأس المال في دورته نحو الزيادة أو الحفظ حسب تطورات السوق والبنية التجارية.<sup>(17)</sup> والدليل على ذلك أنه حينما تسود السلعة، ويصبح الإنسان منفصلاً عن حاجات الإنسان، يتكون لديه نظام إنتاجي عام يعتمد على الرأسمالي التجاري ، الذي يجني فائض الربح من عملية المبادلة أو الشراء والبيع. هذه العملية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي المعاصر هي التي تصبغ طبيعة الأنظمة التي ستسيطر فيما بعد، وذلك عن طريق تقوية العلاقات القائمة بين البشر بحيث تبدو لنا في صورة أشياء. وهذا هو التشيؤ.<sup>(18)</sup>

من خلال هذا المنطلق، نفهم أن الفيلسوف والعالم الاقتصادي كارل ماركس يعتبر أول من تطرق لدراسة ظاهرة الإغتراب في المجال الاقتصادي في مخطوطاته التي دونها عام 1844، ثم في عمله الضخم الذي جاء بعنوان: "رأس المال". ولقد مارس هذا التحليل الاجتماعي

الماركسي لظاهرة التشيؤ تأثيرا عميقا في شخصية لوكاتش الذي "يرجع له الفضل في إثارة مشكلة التشيؤ واغتراب الإنسان - العامل في المجتمعات البرجوازية للنظم الرأسمالية، إذ كان له أكبر الأثر في فلسفة الماركسيين الجدد من أصحاب النظرية النقدية" المعروفين كذلك باسم « مدرسة فرانكفورت »<sup>(19)</sup> التي يمثل فيها هربرت ماركيزوز أهم محطة نقدية تتجلى لنا في الإنتقاد اللاذع الذي وجهه ضد "النظام الرأسمالي وكل أنماط وأشكال عقلانيته التكنولوجية"،<sup>(20)</sup> التي عوض أن تساهم في العمل من أجل تحرير الإنسان، نجدها تمثل السبب الرئيسي الذي أدى إلى انتشار ظاهرة تشيؤ العلاقات الإنسانية.

#### - مفهوم التشيؤ وأشكاله لدى هربرت ماركيزوز:

لقد رأينا أن عملية تحليل ظاهرة الإغتراب تعد بمثابة الأساس الذي تزخر به مخطوطات ماركس في عام 1844. ثم بيننا فيما بعد أن لوكاتش قد توسع هو أيضا في هذا المجال حيث كان يرى أن مفهوم التشيؤ أصبح يعكس تجلي ظاهرة الإغتراب التي أصبحت تتخذ بعدا أونولوجيا في الواقع الإجتماعي المعاصر.<sup>(21)</sup> بمعنى أن مفهوم الإغتراب - حسب لوكاتش - بلغ حده الأقصى في الظلم والقهر والإضطهاد فتجسد فيما يسمى بظاهرة التشيؤ. أما الآن، سنتطرق مباشرة لوصف تحليل

ماركوز لهذه الظاهرة الوارد في كتابه الموسوم : "الإنسان ذو البعد الواحد " الذي كشف فيه الوجه القبيح الذي تتصف به مجتمعات الأحادية البعد، حيث دفعت به هذه المرة الظروف التي عاشها إبان القرن العشرين من ثورات ومعارك وسيطرة الأنظمة الشمولية...الخ، إلى تجاوز مفهوم فييتيشية البضاعة الذي حصره ماركس في إطار الحياة الإقتصادية - الإجتماعية .ومن بين هذه الظروف نجد تطور وسائل الانتاج وإنتاج سلع وأدوات متنوعة وراقية، بغية استقطاب أكبر عدد ممكن من المستهلكين، كتوفير " ثلاثة وعشرين نوعا من مساحيق الغسيل مثلا، في حين كان إنتاج نوع واحد يفي بالحاجة."<sup>(22)</sup> هذا وبالإضافة إلى العديد من الأمثلة التي لا حصر لها، والتي سببت - حسب ماركوز - ليس فقط في بروز ظاهرة التشيؤ المرتبطة بالمجال الإقتصادي الذي يتحدث عنه ماركس في "رأس المال"، بل إنه بلغ ذروته عندما شياً جميع القوى التي يتمتع بها الإنسان.

الواقع أن ماركوز يصف في هذا السياق شبح مخيف يعاني منه الإنسان في ظل المجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا. وهذا الشبح هو الذي يطلق عليه تسمية ظاهرة التشيؤ التي تنتسح في العالم المعاصر وتتخذ أشكالا متعددة. بصيغة أخرى، إذا كان ماركوز في وصفه هذا يميز بين ظاهرة فييتيشية السلعة التي سادت في القرن التاسع

عشر وما يسميه بالتشيؤ، فإنا ترى هل تمكن من تشخيص تلك العيوب الجديدة التي تميز مجتمعات القرن العشرين؟ وبالأحرى، ترى ماذا يقصد بمفهوم التشيؤ؟ وفيما تجلت أهم أشكاله؟

يبدو لنا أن ماركوز متفق مع ماركس في الفكرة التي مفادها تشيؤ العلاقات الإنسانية في ظل المجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعياً، إلا وأنه يؤكد بأن مفهوم التشيؤ أو الإغتراب ليس بظاهرة اقتصادية فقط، ولكن أكثر من ذلك، إنه يعكس ظاهرة أونترولوجية تعبر عن فقدان الإنسان ماهيته<sup>(23)</sup> المتمثلة في قوته العقلية التي تمارس وظيفة سلب الوضع الإجتماعي المتهتك، ومختلف قيمه الروحية التي تتماشى مع طبيعته الإنسانية كالحرية والسعادة، وطاقته الجنسية البيولوجية التي تجعله يخلو إلى التلذذ والإستمتاع بكل حرية دون أي قيد أو شرط، و ذلك بتأثير "الفكر العلمي الوضعي الذي ينظر إلى العالم على أنه كلية من الأشياء... إذ أصبح يحصر مجال البحث في هذه الأشياء التي في استقلال تام عن الذات العارفة. بتعبير آخر، إن العامل الذي جعل الإنسان المعاصر كائننا مغتربا، يفتقر لخاصيته الإنسانية يتمثل في تركيزه على العلم الوضعي، هذا العلم الذي لا يمثل في حقيقة الأمر إلا ذلك التوجه الإبيستيمولوجي الذي جعل الإنسان المعاصر يرى أن ضرورة توفير



الأمن والإستقرار في حياته اليومية مرتبط أشد الإرتباط بالعودة إلى تطبيق المنهج الوضعي. «(24)

ولكن إذا كان ماركيز قد كشف العيب الذي تتسم به المجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعيا والتي تؤمن بفكرة الصراع ضد الطبيعة والإنسان في آن واحد من أجل السيطرة عليهما، فيا ترى ماذا يقصد بتشويء العقل، ومختلف القيم الإنسانية الأخرى؟

#### أ- تشيؤ العقل:

لقد أمّنت التقنية المعاصرة كما سبق وأن أشرنا مستوى معيشة الفرد وراحته،

ولكنها فرضت عليه من قيود ما سلب حريته، وهذا ما جعل من العقل لا يحقق غرضه الأصيل في توفير حياة إنسانية متطورة بشكل حر، بل فرضت الحضارة اللاعقلية حصارا حول الوعي فتشياً وأصبح بمثابة أداة يستغلها الحكم المؤسساتي لتحقيق منفعه الخاصة. وأصبحت بعد ذلك الحضارة المعاصرة تؤمن بنظام ليس هدفه تغيير النظام القائم نفسه، وإنما يتمثل هدفه في تعقيل اللاحرية التي تجعل من استعباد الإنسان شيئا لا مفر منه. وبتعبير آخر، لقد قام النظام المعاصر المتقدم صناعيا بتشويء العقل، حيث أصبح هذا الأخير - الذي كان مع فلاسفة التنوير أمثال

إيمانويل كانط يؤدي رسالته التنويرية من خلال ممارسة وظيفته النقدية - يحمل صفات متناقضة مع مهمته الأصلية، إذ اتخذ منعرجا جديدا فسقط في ذلك النفق المظلم الذي أصبغ عليه صبغة الآداتية، وأصبح بمثابة عقل أداتي يسيطر على الحياة الإنسانية بالإستناد إلى المنهج العلمي الذي مد سيطرته من جهة على الطبيعة وسعى لإلغائها، وعلى الإنسان نفسه من جهة أخرى.<sup>(25)</sup> وبالفعل، هذا ما نعثر عليه في كلام ما نصه ماركوز في ما يلي:

"إن التقدم التكنولوجي الذي تحظى به المجتمعات المتقدمة صناعيا يحمل في طياته ظاهرة لا مفر منها، تتمثل في خضوع العقل لواقع الحياة بحيث يتحول في ظل هذه المجتمعات إلى قوة باستطاعتها أن تجدد دائما ويكل ديناميكية مختلف تلك العناصر التي تجعل من الحياة داخل هذه المجتمعات تزخر بالرفاهية التي تزودها بالحيوية في سيرورتها."<sup>(26)</sup> وهذا يعني أن خضوع العقل أو تلك القوة النقدية في النظام القائم كما يحرص على ذلك ماركوز في نصه هذا يدل على تشيؤه، وعلى نجاح المشروع الذي كانت تصبو إليه النخبة الرأسمالية والمتمثل في تحقيق سيطرتها بالإستعانة بهذه الطاقة العقلية وذلك من خلال شلها من تأدية وظيفتها النقدية. والدليل على ذلك، إن المهمة التي كان العقل يؤديها في عصر

الأنوار والتمثلة في رفض السيطرة والطغيان والسعي لإلغاء كل أشكال القهر والإضطهاد أصبحت اليوم مفقودة في إطار هذه المجتمعات الرأسمالية التي سمحت ظروفها للعقل التقني أن يفرز ما يسميه بالمجتمع الشمولي العقلاني، إذ أصبح العقل يؤدي وظيفة مناقضة لماهيته المتمثلة في ترسيخ الخضوع للتسلط بشكل لا يمكن ملاحظته. وهذا ما تجسد في تحول التقنية إلى إيديولوجية، نظرا لتلك القيود التي تفرضها والتي تظهر على أنها خاضعة للعقل الذي رتب ونظم كل شيء على نحو أفضل، على نحو تلبية وإشباع الحاجات والرغبات المادية التي كان الإنسان يحلم بها دائما بشكل أفضل مما كان عليه في السابق، كأن يحلم بتأسيس الرضا في وعيه وتصوره إلى درجة أن هذا الأخير سيحقق له سعادته من خلال السلع التي يستهلكها، غافلا بأن هذه البضاعة هي التي تستهلكه في حقيقة الأمر.<sup>(27)</sup> بدليل أن هذه الظاهرة أفضت إلى "فناء الإنسانية، بل أيضا إلى جعل التكنولوجيا كأداة مسخرة لسيطرة على الإنسان والطبيعة في آن واحد."<sup>(28)</sup>

مما لا شك فيه، إن هذا الوضع الذي يعيشه الإنسان المعاصر يدل على أن ذلك التطور الخلاق الذي عرفه العالم المعاصر المتقدم صناعيا وتكنولوجيا والناجم من تحويل الموضوعية العلمية إلى أداة تخدم المشروع

التسويقي الرأسمالي، قد ساهم في تغيير المعنى الحقيقي للإنسان من ذات ثرية بمختلف القيم الإنسانية إلى كائن مشياً، أي من ذات تفكر، تنتقد، تسلب وترفض، إلى ذات تتقبل وتتخرط في النظام القائم بشرائها واستهلاكها للسلع المنتوجة والموفرة لها، باعتبار أن الإنسان المعاصر لا يتعرف على وجهه الحقيقي إلا من خلال المزيد من استهلاك البضاعة التي يقتنيها مقابل تلك القيمة المالية التي يفرض عليه النظام الرأسمالي ضرورة دفعها.

وفي هذا الإتجاه نعثر على حقيقة تقيد أن هذا الوجه القبيح الذي تتصف به المجتمعات المعاصرة المتمثل في السيطرة والقمع جعل ماركوز " يشارك كل من هوركهمر و أدورنو في أن العقل لا هو مطلق ولا ثابت بل هو نسبي متغير ينتمي إلى اللحظة التاريخية وأن التطوير التاريخي والواقع المتغير قدما عقلانية تحولت إلى لاعقلانية. هذه الأخيرة التي تريد أن تؤيد الوضع القائم، وتزعم أنها تقدم نظريات تعارض اللاعقلانيات الموجودة ... و إذا كانت وظيفة الفلسفة التعرف على لا عقلانية الواقع ورفضه رفضاً غيبياً فإنها قصرت وظيفتها اليوم في رأي ماركوز على ما يسمى بعقلانية ما بعد تقنية، على حين أنه يمكن للفلسفة أن تقدم وظيفة بديلة عندما لا تجد حرجاً من العودة إلى إحكام القيمة وتتجاوز النظام

الموجود وتعلو عليه بشكل نقدي." (29) ولعل المنفعة الخاصة التي تجري ورائها النخبة الممارسة للحكم في المجتمعات الرأسمالية لعبت دورا فعالا في العالم المعاصر حيث جعلت من العقل أداة تعمل به هذه النخبة التي تتمثل غايتها في الربح السريع عن طريق جمع وكسب النقود التي تفرض بها سيطرتها على شعوبها. حيث يتحقق ذلك خاصة "عندما تزداد فعالية هذا النظام بأن يرفع من مستوى معيشة أفراده، ومن خلال ممارسة مهارته في التعميم على الإعتراضات الداخلية، بحيث يبدو البحث عن بديل لهذا النظام بشيء غير عقلاني،" (30) نظرا لتشيؤ تلك القوة العقلية التي كانت تؤدي وظيفة النقد، وذلك هو الأمر الذي عبر عنه ماركوز في كلامه الآتي:

" إن التقدم التقني يرسخ دعائم نظام قائم على السيطرة والتنسيق، ويحرم النقد من أساسه الاجتماعي. وهذا النظام يوجه بدوره التقدم ويخلق أشكالاً للحياة (وللسلطة) تبدو وكأنها منسجمة مع قوى المعارضة، بحيث تبطل جدوى كل احتجاج باسم الآفاق التاريخية وتحرير الإنسان." (31) وهذا يعني أن النظام القائم على السيطرة والقمع كي يقضي على القوة النقدية التي يزر بها جوهر الإنسان (العقل)، راح يستعملها كوسيلة للسيطرة على الإنسان، وشل إرادة ذلك العقل التتويري الذي كان يمارس وظيفة

النقد ضد الأنظمة الاستبدادية، بغية تدجينه في لعبة الاستهلاك، وسلب سلم معايير القيمة وطرده من ساحة المعركة النقدية التي تدافع عن القيم الإنسانية، وذلك من أجل تشييء مختلف القيم الأخرى التي يزخر بها الإنسان والتي كان العقل بمثابة السلاح الذي يدافع عنها ويتعالى بها إلى أرقى درجة في سلم القيم الروحية التي ينبغي على الإنسان المعاصر أن يعتبرها كمرجعية أساسية إن كان هدفه يتمثل في تشييد عالم العدالة والحق والجمال.

### ب- تشيؤ القيم الإنسانية:

لقد سلك الجهاز الإقتصادي الرأسمالي الذي تتحكم فيه تلك القوة الذكية - المتكونة من نخبة من العلماء الإقتصاديين والسياسيين والإجتماعيين، وعلماء النفس الذين يختصون في دراسة ذلك الجانب البيولوجي الخفي في كيان الإنسان فيكشفون أغواره بغية السيطرة عليه، وجعله بمثابة عبد تنحصر مهمته في دفع عجلة تقدم الأنظمة القائمة بعدما نجحت هذه الأخيرة في نقله من عالم الفكر إلى عالم الإستهلاك - حيلة ماهرة تظهر في استغلال موضوعية العلوم الوضعية، لخدمة مشروعهم التسويقي الذي يهدفون من خلاله إلى تشييء كل ما هو معارض وخارج عن إطار هذا الجهاز الإقتصادي الرأسمالي الذي يؤمن

بفكرة المنفعة الخاصة، أو بفكرة الصراع من أجل البقاء. أكثر من ذلك، إن هذا النمط من النظام الإقتصادي الذي يدعي تحقيق مختلف القيم الإنسانية كالسلم والعدالة والمساواة التي ستبني صرح ذلك العالم الذي تسود فيه مثل هذه القيم المثالية، يعمل في الحقيقة على تشييء مختلف هذه القيم الإنسانية، وذلك نظرا للتطوير الصناعي التكنولوجي الذي حققته الحضارة المعاصرة والذي جعلت منه بمثابة المسلك الذي ستسلكه بغية "تحويل الناس إلى عناصر مدججة داخل جهاز النظام القائم، أو إلى أدوات تخدم هذا النظام." (32) وفي ذات السياق نعثّر على كلام ماركوز في كتابه " الإنسان ذو البعد الواحد " عندما أعلن أن إنسان الحضارة الغربية المعاصرة خاضع دائما للجهاز الإنتاجي، وخضوعه هذا يتضاعف ويزداد كلما اتسعت دائرة الحريات وارتقت السلع إلى ذلك المستوى الذي تحقق فيه الرفاهية للإنسان. (33)

والحقيقة أن ظاهرة خضوع الإنسان للنظام القائم تسببها عدة عوامل، فهي من جهة تتمثل في زيادة الانتاج وثبات المؤسسات الإقتصادية، والتوسع الإقتصادي القائم على فكرة الربح، وإمكانيات الإستثمار والإنتاج والتسويق والتبادل التي تجعل من السلع بوصفها عملا أحد أهم العناصر المتحكمة بالفرد الذي ينتجها والذي يستهلكها، فلا غرابة

أن تظهر المجتمعات الإستهلاكية، وتتضاعف نسبة الحاجات ويندرج كثيرا من القطاعات الصناعية في حلقة لانهائية من الإنتاج، وخلق رغبات لإستهلاك ذلك الإنتاج، ثم إشباع تلك الحاجات. ومن جهة أخرى، نجد الدعاية تلعب دورا كبيرا في استحداث حاجات جديدة بناء على رغبات استهلاكية، بحيث سيحصل هنا خلط كبير في القيم الحقيقية للسلع، بسبب غياب تحديد دقيق لمفهوم الحاجة، فكل ما ينتج يكتسب معنى السلعة التي هي في الأصل جهد إنساني، فتعوم السلع والرغبات في علاقة إنتاج - إستهلاك دون مراعاة عقلية لقيم الإنتاج من الناحية الإنسانية، ولا تحديد لدوافع الإستهلاك إستنادا إلى حاجات حقيقية. إن وظيفة العالم الإقتصادي المعاصر تتلخص في خلق علاقة جديدة تربط بين السلعة المنتجة ومستهلكها، علاقة غير خاضعة لشرعية معينة... بحيث يؤدي ذلك إلى ظهور وعي استهلاكي سلبي لا يعنى أبدا بالإنتاج كفعل إنساني، وإنما يعنى به كسلعة، كشيء يشبع رغبة ولو لم تكن مشروعة.<sup>(34)</sup> إذ يؤدي ذلك إلى تحويل الإنسان الذي كان يتمتع بمختلف القيم الروحانية كقيمة الحرية وقيمة العمل... الخ، إلى رغبة يمكن إشباعها أو إرضاؤها باستهلاك منتجات الصناعة... ولو بقليل. والدليل على ذلك يبدو لنا جليا في واقع هذه الحضارة المعاصرة التي تؤمن بالشعار المختصر في هاتين اللفظتين:



\*استهلك واصمت\* « consomme et tais toi ». بصيغة أخرى، إن  
ماركوز قد كشف بأن أزمة الحضارة المعاصرة، تقوم على التقدم العقلاني  
والتكنولوجي، وازدهار انتاجي استهلاكي وهي في نفس الوقت تمارس قمع  
فكري ونفسي وبيولوجي، إذ تقوم تكنولوجية السيطرة البيروقراطية بتحويل  
إنسانية الإنسان إلى شيء، أي إلى كائن مغترب عن ذاته وعن وعيه وعن  
حقيقته. (36)

ومما لاشك فيه، إن من بين القيم الإنسانية المشيئة، نجد كل من  
قيمة الحرية وقيمة العمل، حيث نعتز على ذلك في ما صرح به ماركوز في  
كتابه " الماركسية السوفياتية. تحليل و نقد" عندما اعتبر أن قيمة الحرية  
وما تتمتع بها من استقلالية - من حيث طبيعتها- عن القمع الذي يمارسه  
الحكم، تنتقل من الفرد المستقل لتحل مكانا ضمن القوانين المتحكمة في  
المجتمع الذي يمارس سلطته هو أيضا على أفرادهِ. إنها تؤسس مع  
القوانين التي تدير الجهاز الإقتصادي، الأمة والفئات التي تنتمي إليها، (37)  
وذلك نظرا لطبيعة هذا المجتمع الذي تحدد خصائصه الحتمية الإقتصادية  
أو ما يسميه ماركوز بعالم الضرورة. فماركوز يرى أن العالم السوفييتي  
يسعى في حقيقة الأمر للحاق برفاهية العالم الإقتصادي الرأسمالي، ولكي  
يحقق ذلك كان مزودا بحرية اقتصادية تقوم على قاعدة مهمة تتمثل في

حرية المنافسة والصراع من أجل البقاء وكسب المال. إذ يرى ماركوز أن ماركس كان يؤكد دائما أن مثل هذه الحرية المزيفة تسلب الحرية الحقيقية لأنها تجعل من الإنسان يكرس كل وقته وطاقته في البحث عن الوسائل التي تضمن له بقاءه، ولكن العيب يكمن في أن ذلك يتم في إطار "عمل مغترب". وبهذا فإن عالم الإقتصاد الذي تتحكم فيه الضرورة حيث يتنافس فيه الأفراد بغية ضمان بقائهم، لا يمكن أبدا أن نعتبره كمملكة تسود فيه الحرية الإنسانية.<sup>(38)</sup> بل إنه يمثل في حقيقة الأمر ذلك العالم الذي يقيد الإنسان ويسلب منه حريته. أما فيما يخص ظاهرة تشيؤ قيمة العمل التي كانت فيما مضى تعبر عن ماهية الإنسان، فإننا نجد في العالم السوفييتي بعض العوامل التي تسبب في بروز هذه الظاهرة والتي من بينها طبيعة الأخلاق السوفييتية التي لا تعترف أبدا بذلك الاختلاف الأثقي القائم بين قيمة العمل الغير المغترب والعمل المغترب، والدليل على ذلك، يظهر لنا بكل وضوح في تلك الممارسات اللإنسانية التي كانت الدكتاتورية الستالينية تمارسها على الشعب الضعيف، حيث تفرض عليه إخضاع كل طاقاته وقواه في تأدية الوظائف التي يشغلها والتي يجبر على الإشتغال بها. وهذا يعني أن هذه الظاهرة المتمثلة في تشيؤ قيمة العمل تعبر عن استحالة بناء وتشبيد صرح العالم الشيوعي، باعتبار أن العمل في ظل هذا

المجتمع السوفيتي أصبح يمارس داخل مملكة الضرورة ولم يعد ينتمي إلى عالم الحرية الذي يعبر فيه الإنسان عن سعادته<sup>(39)</sup>

أكثر من ذلك، إن ظاهرة تشيؤ القيم الإنسانية في وسط هذه المجتمعات التي توفر من أجل أن تتمع، بلغت تلك الدرجة التي أصبح فيها الإنسان هو الذي يتقبل هذه الميزة القبيحة التي تشوه سمعته. والدليل على ذلك، إن " الناس في ظل هذه المجتمعات الصناعية لا يرهقون أنفسهم في العمل من أجل استرجاع حريتهم المفقودة، بل إن الرفاهية التي يوفرها لهم المجتمع الرأسمالي هي التي صنعت منهم أناس يسعدون بحريتهم... التي يتم إدارتها من طرف الحكم المؤسساتي البيروقراطي الذي يصنع منها قيما وهمية، مزيفة، غير حقيقية."<sup>(40)</sup>

على أساس ما تقدم، نصل إلى الحكم بأن الأفراد الذين ينتمون إلى مجتمع الوفرة " في الوقت الذي يحقق لهم هذا المجتمع إشباعا على المستوى البيولوجي فإنهم ليسوا بحاجة للمعارضة، بل إنهم سيتحولون إلى أدوات تخدم النظام المسيطر."<sup>(41)</sup> ومما لاشك فيه، أن ظاهرة تشيؤ القيم الإنسانية وتحول الإنسان من طبيعته الحرة إلى أداة في خدمة النظام يتم "بتسلط النظم البيروقراطية وأساليب القمع الإداري المختلفة التي تجعل الإنسان نهب لمظاهر القهر الخفية والساخرة في المجتمع الصناعي

المتقدم الذي أحكمت أجهزة الإدارة قبضتها عليه، بحيث سلب البشر  
فرديتهم، وانحطت قيمهم الإنسانية والذاتية تحت ضغط عملية الإنتاج  
الآلية إلى مستوى الشيء الذي تشكله القوة المسيطرة كيفما شاءت." (42)

### ج- التشيؤ الجنساني :

الواقع، أن جهاز الحكم المؤسساتي في هذا العالم المعاصر لم يكتفي  
بتدجين تلك القوى

المتعددة التي تدافع عن إنسانية الإنسان من جهة، وترفض النظام القمعي  
من جهة أخرى، والمتمثلة في القوة العقلية ومختلف القيم الإنسانية التي  
تبدو لنا جلية في قيمة الحرية وقيمة العمل، التي تحقق سعادة الإنسان. بل  
إنها راحت إلى أبعد من ذلك عندما شرعت في تحليل ودراسة الحياة  
البيولوجية التي تشغل ذلك الجانب الخفي في حياة الإنسان، أي حياته  
الغريزية التي كان يتلذذ بها بكل حرية دون تدخل أي عامل اجتماعي -  
اقتصادي ليعيقها. إذ توصل الرجال الرأسماليون بدراستهم هذه إلى استنتاج  
مهم يخدم مباشرة تطور وتقدم اقتصاد العالم الرأسمالي. والسر في ذلك  
يكن في أنه إن تم الوصول إلى دمج وتشبيء حرية الممارسة الجنسية أو  
الحب إن صح التعبير في لعبة الاستهلاك، أي إذا تم تحويل هذه القيمة  
الإنسانية إلى سلعة تجارية بحيث يتم استثمارها لكسب الربح وامتلاك

النقود، فإنه من دون أي شك سينجح النظام الإقتصادي المعاصر في فرض سيطرته على الإنسان. بمعنى آخر، إن النظام تقطن لتلك الثروة التي سيجنيها إن نجح في عملية تدجين الحياة الجنسية في نسقه، بحيث يجعل منها سلعة تباع وتشتري فشرع في تشييد تلك البيوت التي أصبح الحب يمارس فيها كعملية تجارية. وهذا ما يسميه ماركوز بتشويؤ قيمة الحب، أي تحويل "علاقة الإنسان بالمرأة التي كانت الأكثر طبيعية للإنسان والإنسان من طرف الرأسمالي الجشع النهم الذي لا يعرف هدف للحياة إلا الإمتلاك الجسدي المباشر... [ إذ قام بقلب هذه ] العلاقة إلى امتلاك وسيطرة، وبالتالي تحول الإنسان إلى شيء".<sup>(43)</sup> والدليل على ذلك، إن الجنس أصبح في العالم المعاصر متضمن في الساحة التجارية، ومندمج بعلاقات العمل.<sup>(44)</sup> بمعنى أن مبدأ اللذة أصبح يحتل مساحة شاسعة في الساحة الواقعية المتمثلة في عالم التجارة الرأسمالية. وهذا ما شكل موقف ماركوز من طبيعة الحياة الإبروتيكية في ظل المجتمعات الغربية المعاصرة، وهذا ما نعثر عليه في كلامه الآتي نصه:

"لقد أصبح الجنس يعلن نفسه بصورة أكثر واقعية وأعظم جرأة وأقل كبتا بكلمة واحدة، إنه عنصر أساسي في المجتمع الذي يظهر فيه، وليس نفيا له."<sup>(45)</sup> حيث يؤكد بقوله هذا أن ظاهرة تشيؤ الحياة الجنسية في ظل هذه

الأنظمة المعاصرة هي مسألة تعبر عن قوة هذه الأنظمة ومدى دهاء حكامها الذين يزعمون بأنهم حققوا ما يسمى بالتححرر الجنسي للإنسان المعاصر في الوقت الذي تبدو فيه هذه الحرية مزيفة ووهمية، تهدف إلى السيطرة على الإنسان أكثر من أن تكون في صالح سعادته.<sup>(46)</sup> ولتوضيح هذه الفكرة نجده يضيف ما يلي:

"إذا كانت الحضارة الصناعية المتقدمة تمتاز أول ما تمتاز بالسيطرة السياسية والتكنولوجية على العوامل المتعالية في الوجود الإنساني، فإن هذه السيطرة تتأكد أيضا في دائرة الغرائز، إذ تتم التلبية بصورة تولد الخنوع تلقائيا وتضعف عقلانية الاحتجاج."<sup>(47)</sup> بمعنى أن الأنظمة الإقتصادية المعاصرة التي تسير وفق الأوامر والقوانين التي يصدرها الحكم المؤسساتي بعد أن يتم التداول عليها، لم تكثف بممارساتها القمعية المشوهة لكرامة الإنسان بالسيطرة السياسية والتكنولوجية بل راحت توسع من دائرة السيطرة بغية تشييد دعائم عالم البعد الواحد، وذلك عن طريق تحيين الجانب البيولوجي في الإنسان أي في لعبة الإستهلاك أو عملية البيع والشراء التي تعد بمثابة حجر الزاوية بالنسبة للأنظمة المعاصرة المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، حيث تحقق ذلك مباشرة حينما قامت هذه المؤسسات السياسية بتحويل الإنسان إلى مادة نافعة أنتزعت عنه قداسته وتم تعريته من

انسانيته، حيث ترك عاريا تماما أمام هذه المؤسسات القوية التي تدور في اطار المرجعية المادية الكامنة والنفعية الداروينية التي تقوم بحوسلته وتوظيفه...من خلال جعل النشاط الجنسي - على سبيل المثال - مجرد نشاط مادي، شأنه شأن النشاط الإقتصادي، إذ أصبحت الطاقة الجنسية للإنسان باعتبارها طاقة طبيعية/مادية توظف داخل السوق والمصنع، أي أنها أصبحت طاقة إنتاجية إستهلاكية. ومن ثم ظهر ما يسمى تجارة/صناعة البغاء.<sup>(48)</sup>

ومما لا ريب فيه، أن من بين الصور المعبرة على انتشار ظاهرة التشيؤ الجنساني في ظل الحضارة الغربية المعاصرة، نجد أنه " حينما قبض على السيدة سيدني بيدل باروز وهي سيدة في أسرة باروز الأرستقراطية العريقة، التي أتى مؤسسها على سفينة الماي فلاور، أول سفينة نقلت المهاجرين الإنجليز إلى الولايات المتحدة، وحينما وجهت إليها تهمة إدارة حلقة دعارة في نيويورك، كان خط دفاعها أن الدعارة هي عبارة عن عمل استثماري، **بيزنس Business**،... وبعد ذلك صدر لها كتاب يسمى آداب الماي فلاور: **mayflower Manners : Etiquette** . وعبارة (كونسنتج أدلتس) التي ترد في العنوان هي عبارة قانونية تشير إلى أي شخصين بلغا سن الرشد قررا

ممارسة الجنس سويا، ولذا فعملهما شأن خاص بهما. وفي هذا الكتاب قامت المدام بتعليم النساء كيفية التصرف بلباقة في الفراش...وبعد ذلك بعام واحد، قامت السيدة الرائدة نفسها في مجالها بتدريس مقرر في إحدى المدارس الحرة عن هذا الموضوع. ولا ندري هل ستنتقل إلى المدارس العليا وأكاديميات البحوث المتخصصة أم لا؟ وهل ستؤسس تخصصا أكاديميا جديدا؟»<sup>(49)</sup>

هكذا نجحت الأنظمة المعاصرة في تشييء كل تلك القوى التي تؤدي دور المعارضة ومختلف تلك القيم الإنسانية المتميزة بطبيعتها عن ماهية هذا العالم المتمثل في شبح البعد الواحد. وذلك بغية تحقيق غايتها التي تتمثل في تحويل الإنسان إلى كائن يرى ماهيته وقيمه في تلك المواد التي يستهلكها، كائن غريزي يجري وراء إشباع مختلف الحاجات كالمأكل والملبس والجنس. وبكل اختصار، تحويل الإنسان إلى عبد يعبد المواد التي يوفرها له عالم البعد الواحد، وذلك ليجعل منه إنسانا ذا بعد واحد يفتقد كرامته وحرية وسعادته.

#### د - تشيؤ اللغة:

في الحقيقة، "إن عالم البعد الواحد يتميز بنفي كل أشكال المعارضة والتناقضات، وذلك بفضل إرادته العنيفة المناقضة لكل أشكال النقد



والرفض التي تثور عليه، والتي تتمثل هذه المرة في وسيلة أخرى تؤدي إلى سيطرة وانتشار عالم البعد الواحد في هذه الحضارة المعاصرة والمتمثلة دون أي شك في عالم اللغة<sup>(50)</sup> ولكن، إذا فقدت اللغة وظيفتها النقدية وأصبحت تخدم النظام القائم، فيا ترى كيف تم ذلك ولماذا؟

يرى ماركوز أن "العالم الذي يعيش فيه الإنسان ذو البعد الواحد هو عالم الخطاب المنغلق. الذي يبدو لنا جلياً من خلال تلك القوى المعارضة المتصالحة معه. وخاصة بعد أن تم إفراغ إحدى هذه القوى الناقدة والمتمثلة في اللغة من ماهيتها."<sup>(51)</sup> وبالفعل، هذا ما نستشفه من كلام ما نصه:

"إن وكلاء الإعلان يصنعون عالم الإتصال يترجم فيه السلوك الأحادي البعد. ولغة هذا العالم هي لغة توحد وتوحيد تتصدى للأفكار النقدية والمتعالية وترتقي بالفكر الوضعي السائد كما أن مؤسسات البحث على الصعيد العسكري ومكاتب الإدارة والحكومات والوكالات والخبراء... تتكلم لغة مغايرة للغة رجل الشارع (أو الناطق الغافل بلسانه) الذي يؤكد إنسانيته في لغته بوضعه إياها على قلب معارض للسلطات القائمة. إن تلك المؤسسات الحكومية من خلال التمرد والرفض والسيطرة التي تمارسها في الوقت الراهن هي صاحبة الكلمة الأخيرة."<sup>(52)</sup>

بمعنى أن اللغة في ظل المجتمع المعاصر فقدت ماهيتها وخاصيتها الرئيسية المتمثلة في النقد أو النفي، أو هدم الواقع القمعي. لقد تسللت فيها هي أيضا جرثومة البعد الواحد وأصبحت بمثابة سلاح تضاف إلى تلك الأسلحة التي يستعملها الحكم المؤسساتي كوسيلة لتحقيق أغراضه ومنافعه الخاصة. ولكي ينزع ماركوز الستار ويكشف عن العيب الذي تتميز به طبيعة اللغة في ظل هذه المجتمعات المتقدمة نجده يوسع تحليله هذا ويشير إلى تلك التعبيرات التي تخص كل مجتمع من هذه المجتمعات المعاصرة، والتي تفرضها المؤسسات القائمة في مثل هذه المجتمعات الأمريكية والسوفييتية والأوروبية، بحيث تحدّد خصائصها. ومن بين هذه التعبيرات نجده يذكر بعضها فيما يلي:

" في الغرب تلقى الخبر أو المسند في تعابير من شاكلة ( المشروع الحر) و(الانتخابات الحرة) و(الفرد الحر)، وفي الشرق تلقاه في تعابير من شاكلة ( العمال) و(الفلاحين) و(بناء الإشتراكية) و(إلغاء الطبقات المعادية). وإذا ما خالف الكلام في أي من المعسكرين هذه البنية التحليلية المنغلقة اقتترف خطأ." (53)

بمعنى أن ماركوز يؤكد في هذا السياق بأن كل مجتمع من هذه المجتمعات يستعين باللغة التي تبني مشاريعه. وهذا الإختلاف في البنيات

اللغوية الموظفة من مجتمع إلى آخر هو العامل الذي يدل على أن اللغة لا تؤدي وظيفة معينة، وإنما أصبحت توظيف لتحقيق أغراض النخبة الرأسمالية المتعطشة لكسب النقود.

بالإضافة إلى ذلك، إن هذه اللغة هي خادمة للواقع القائم سواء في المجتمعات الرأسمالية أو المجتمعات الإشتراكية ، باعتبارها عملت على إجهاض طاقتها الثورية، فالمجتمع الرأسمالي ( مجتمع البعد الواحد) كانت لغته دائما لغة إيجابية لا تعرف الرفض ولا السلب، لا تقدر إلا على تدعيم ما هو قائم وترفض النظر إلى ما ينبغي أن يكون. نفس الشيء بالنسبة للمجتمع الإشتراكي الذي لا تستطيع لغته أن تقدم الجديد، فاللغة في عالمنا المعاصر بوجه عام في نظر ماركوز لغة قمعية لا تقدم أي شيء ولا تيرهن على أي شيء، فعملها الأساسي يتمثل فقط في فرض أوامر تعسفية، فتتشكل مفاهيمها من أجل خدمة أغراض سياسية وايدولوجية وترفض في المقابل أي إبداع حقيقي وأي فكر نقدي.<sup>(54)</sup> إن من بين سلبيات هذه اللغة أنها متناقضة غير مفهومة، وفي هذا الشأن يقول ماركوز ما يلي:

" إن هذه اللغة ... تعرض إنسجاما بين المتناقضات، إذ نجد بعض المعايير التي هي على الشاكلة التالية: " المجتمع الحر لأخصائي الحرب

الباردة" و " القنبلة النظيفة"، وغيرها من التعبيرات التي تنسب إلى الإبادة  
نزاهة أخلاقية. «(55)

كما أنها غامضة لا تكشف عن معاني كلماتها، وهذا فيما يخص تلك  
الإختصارات التي تعكس في حقيقة الأمر حيلة عقلية للهروب من حقائق  
معينة، صحيح أن الاختصار مشروع و يجد ما يبرره، خاصة إذا ما كان  
المصطلح كبيرا إلا أن الإختصار قد يخدم أغراضا أخرى. (56) وهذا الأمر  
هو الذي أعلنه ماركوز كما يلي:

" هذه الإختصارات تجد تبريرها في طول المصطلح المختصر... إنها  
حيلة من حيل العقل إذ أن الإختصار يتيح تجنب المشاكل الشائكة  
واللامرغوب فيها. وفضل مثال على ذلك NATO. فهذا الإختصار لا  
يوشي بأن منظمة شمال الأطلسي تعني حرفيا معاهدة بين أمم الأطلس  
الشمالي، ولو استعمل اسم هذه المنظمة بدون اختصار لانطرحت أسئلة  
انتساب اليونان و تركيا إليها. (57) فاللغة كما كشف ذلك ماركوز "  
أصبحت أداة طيعة بيد قوى أصحاب القرار في المجتمع الصناعي ولذلك  
لم تستطع الكشف عن معاني كلماتها" (58) ولم تعد تؤدي وظيفتها النقدية  
التي ستزرع كيان مجتمع التناقضات.

على أساس ما تقدم، إن المجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعيا تحتاج "إلى إنسان أحادي البعد، الإنسان ذو البعد الواحد، له مواصفات مختلفة تماما. إنها تطلب فرد براني على استعداد لأن تدوب فرديته وإنسانيته المتعينة والمحددة في الآليات السياسية للدولة المطلقة، وفي الحركات الإقتصادية العامة للسوق الرشيد الذي تدور مثل الساعة الرائعة الدقيقة، فيتلقى الأوامر وينفذها بكفاءة عالية ودون تساؤلات، أي إن المطلوب هو انسان تم ترشيده واستئناسه وتنميته في إطار المرجعية والأحادية المادية حتى يمكن توظيفه على أكمل وجه."<sup>(59)</sup> فهذا هو منطق السياسة المنتهجة في ظل المجتمعات المعاصرة المتقدمة صناعيا، التي يسعى الحكام من خلالها إلى إنجاح مشاريعهم الإقتصادية بغية ربح المال من أجل إعادة استثماره فيحقق أكبر ربح، وهكذا أصبحت عجلت التاريخ تسير على هذا الدرب فمست بكرامة الإنسان وفككت قيمه الإنسانية، حيث راحت تقيسها بمعيار جديد هو: الشيء المادي.

## هوامش الدراسة:

- (1) Lefebvre Henri : **le marxisme**, (paris – France : presses universitaires de France, 1948), p. 10.
- (2) على ليله : **كارل ماركس والبحث في نشأة الرأسمالية المعاصرة**, ( الإسكندرية – مصر : المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 2006) ص 53، 54.
- (3) كارل ماركس: **مخطوطات كارل ماركس 1844**، ترجمة : محمد مستجير مصطفى، (القاهرة- مصر: دار الثقافة الجديدة، 1974) ، ص 69.
- (4) عباس فيصل: **التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة**، (بيروت لبنان: دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، ط 1، 1991) ص: 180.
- (5) André Nicolas : **Herbert Marcuse ou la quête d'un univers trans –prométhéen**, (paris– France : éditions Seghers, 1970), p. 65.
- (6) كارل ماركس: مرجع سبق ذكره ، ص:72 (يتصرف).
- (7) المرجع نفسه ص: 73
- (8) المرجع نفسه، ص: 76

(9) Karl Korsch : **Karl Marx**, trad de l'allemand. Serge Bricianer,  
(paris –France : éditions Champs Libre, 1971), p. 144.

(10) Ibid.

(11) رمضان بسطاويسي محمد غانم: علم الجمال عند لوكاتش، (مصر: الهيئة  
المصرية العامة للكتاب، 1991)، ص:76

(12) جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي ، ترجمة : د.حنا الشاعر، ( بيروت-  
لبنان: دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1972)، ص: 155.

(13) عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، (الاسكندرية-  
مصر: منشأ المعارف بالاسكندرية)، دون تاريخ، ص: 68.

(14) رمضان بسطاويسي محمد : علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت (أدورنو  
نموذجاً)، ط1، (القاهرة مصر: مطبوعات نصوص 90، 1993)، ص: 10.

(15) عبد الغفار مكاي: النظرة النقدية لمدرسة فرانكفورت. تمهيد و تعقيب،  
حوليات كلية الآداب الحولية 13، 1999 ، ص:104.

(16) إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هايرماس ، ترجمة: حسين

غلوب، ( الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفن والآداب، 1999)، ص: 274،

.279

(17) رمضان بسطاويصي محمد غانم : مرجع سبق ذكره، ص: 77.

(18) المرجع نفسه.

(19) عبد الغفار مكاوي : مرجع سبق ذكره، ص: 104.

(20) François Lavoie : généalogie du concept d'aliénation

chez Marx, Luckas et Marcuse, (Aspets sociologiques),

volume 12, n°01 avril 2005, p. 194.

(21) Ibid, p. 190.

(22) إيان كريب: مرجع سبق ذكره، ص: 278.

(23) Frederic Vandenberghe : une histoire critique de la

sociologie Allemande, (Horkheimer, Adorno Marcuse,

Habermas), tome 02, (paris- France : éditions la decouverte

1998) p. 119.



(24) Lucio collitti : **le marxisme et Hegel**, trad. De l'italien.

Jean claude Biette et Christian Ganchet (paris-

France :éditions Champs libre , 1976) , p. 170.

(25) حسن حنفي وآخرون: فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي،

ط1 (بيروت-لبنان : مركز دراسات الوحدة العربية 2005) ص:55، 65.

(26) Herbert Marcuse : **l'homme unidimensionnel .essai sur**

**la société industrielle avancée.** 1<sup>ere</sup> édition trad. Monique

wittig , (paris – France : éditions de minuit , 1968), p 36.

(27) حسن حنفي وآخرون: مرجع سبق ذكره، ص: 65.

(28) آر.آيه بوكانان: الإله والقوة والسلطة، ترجمة : شوقي جلال، (الكويت:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000)، ص: 237.

(29) حسن حنفي وآخرون: مرجع سبق ذكره، ص: 57.

(30) المرجع نفسه.

(31) هربرت ماركيزوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي،

(بيروت - لبنان: دار الآداب، 1988)، ص: 28.

- (32) Ambacher Michel : **Marcuse et la critique de la civilisation américaine**, (paris- France : éditions Aubier- Montaigne ,1969), p. 43.
- (33) هيريت ماركوز : مرجع سبق ذكره، ص:67.
- (34) Site d'internet :www.startimes.
- (35) زيتاني جورج : **رحلات داخل الفلسفة الغربية**، ط 1 ، (بيروت - لبنان: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1993 )، ص: 78.
- (36) فيصل عباس: مرجع سبق ذكره، ص:190.
- (37) Herbert Marcuse : **marxisme soviétique. Analyse critique**, 1<sup>ere</sup> édition, trad Bernard Cazes, (paris- France éditions Gallimard, 1963), p. 281.
- (38) Ibid, p. 284.
- (39) Ibid, p. 324, 325
- (40) Mcintyre Aisdair : **Marcuse** , trad Houchta pathé (paris- France : éditions Serghers, 1970), p. 105.

(41) Ibid, p. 102.

(42) عبد الغفار مكاوي: مرجع سبق ذكره، ص: 25، 26.

(43) فيصل عباس : مرجع سبق ذكره، ص: 144.

(44) هريرت ماركوز: مصدر سبق ذكره، ص: 111.

(45) المصدر نفسه، ص: 114.

(46) بومنير كمال: جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت (نموذج

ماركوز)، ط1، الجزائر منشورات الاختلاف، ص: 110.

(47) هريرت ماركوز : مصدر سبق ذكره ، ص: 111.

(48) عبد الوهاب المسيري : الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق ،

ط1، 2002، ص: 124.

(49) المرجع نفسه، ص ص: 125، 126.

(50) بومنير كمال : مرجع سبق ذكره، ص: 51.

(51) علاء طاهر : مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر الى هابرماس ، ط1

بيروت ، منشورات مركز الإنماء القومي، دون تاريخ، ص: 76.

(57) Jean Michel – palmier : **sur Marcuse**, paris– France :

Union Général d'éditions, 1968 ), p. 131.

(58) Ibid, p. 132.

(52) هريرت ماركوز : مصدر سبق ذكره، ص: 122، 123.

(53) المصدر نفسه، ص : 125.

(54) حنان مصطفى عبد الرحيم: الفن والسياسة في فلسفة هريرت ماركيوز، ط1،

بيروت- لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (2010)، ص: 132، 133.

(55) هريرت ماركوز : مصدر سبق ذكره، ص: 130، 131.

(56) حنان مصطفى عبد الرحيم: مرجع سبق ذكره، ص : 133، 134.

(59) عبد الوهاب المسيري: مرجع سبق ذكره، ص: 135.